١١. مزاعم المستشرقين حول القرآن الكريم، للدكتور محمد مهر علي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

١٢. المستشرق الألماني بيرجشتراسر وآثاره في الدراسات القرآنية، للدكتور ناصر بن محمد المنيع، مجلة جامعة الملك سعود م٢٢، العلوم التربوية الإسلامية، الرياض.

١٣. المستشرقون والقرآن الكريم، لمحمد بهاء الدين حسين، دار البحوث والدراسات، العراق، بغداد، ط١، ١٤٣٤هـ.

١٤. مناهج المستشرقين البحثية في دراسة القرآن الكريم، للدكتور حسن عزوزي، تحت الرابط: http://www.alhiwartoday.net/node/540

١٥. موقف المستشرقين من القراءات من خلال تاريخ القرآن لنولدكة، للدكتور محمد خروبات. ملتقى أهل التفسير، تحت الرابط: http://vb.tafsir.net/tafsir26940

١٦. موقف المستشرقين من القرآن الكريم جون جلكرايست وكتابه جمع القرآن أنموذجا، للدكتور علاء الدين محمد إسماعيل، المجلد الأول، ضمن بحوث مؤتمر الاستشراق ما له وما عليه، جامعة القصيم، كلية الآداب، ٢٠١٦م.

مبادئ المحافظة على المجتمع الإسلامي
«دراسة موضوعية في ضوء سورة الحجرات»

د. عبد اللطيف عبدالله الحسن محمد[1]

مستخلص البحث

تعنى هذه الدراسة بالبحث في سورة الحجرات؛ للوقوف على المباديء التي رسمها القرآن الكريم للمجتمع الإسلامي، من أجل الحفاظ على كيانه، وذلك بتوجيهات ربانية تحميه من الفتن الداخلية، والتدخلات الخارجية؛ ليكون مجتمعاً حصيناً من الداخل والخارج، متماسك البنيان.

اتبع الباحث المنهج الاستقرائي، والمنهج الوصفي، تناول الباحث فيه التعريف بسورة الحجرات، ومعنى عنوان البحث ومدلوله، ثم وضح التوجيهات التي جاءت في سورة الحجرات، من نتائج البحث: أن القرآن الكريم رسم أمثل منهج في كيفية التعامل مع القادة والحكام وتوجيهاتهم بما يكفل تنظيم الدول والمجتمعات دون احتقار الشعوب أو إذلالها، وأن ضمان بقاء المجتمعات مترابطة، ومتماسكة أمر أكد عليه القرآن الكريم واشتملت السورة على أسس ومبادئ قيام المجتمعات الصالحة.

مقدمـــــة

الحمد لله الذي اختص هذه الأمة بإرسال خير رسله، وشرفها بإنزال أفضل كتبه، ثم الصلاة والسلام على سيدنا محمد الرحمة المهداة، وعلى آله، وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

١- أستاذ مساعد بكلية القرآن الكريم - جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم.

جاء هذا البحث دراسة للتوجيهات والأسس التي اشتملت عليها سورة الحجرات، والتي تمثل منهج القرآن الكريم في المحافظة على المجتمع الإسلامي ليكون قدوة للمجتمعات الأخرى في المحافظة على كيانه وترابط بنيانه، وذلك من أجل إبراز دور القرآن الكريم في بناء المجتمع ، وصيانته، والحفاظ على ذلك البناء من التصدع والانهيار، فإن القرآن الكريم كلام الله -سبحانه وتعالى- وهو أعلم بما يصلح عباده .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله عملاً خالصا لوجهه الكريم وأن ينفع به.

موضوع البحث:

تناول هذا البحث دراسة التوجيهات، والأسس التي اشتملت عليها سورة الحجرات فيما يتعلق بحماية المجتمع وصيانته.

مشكلة البحث:

مشكلة البحث: مبادئ المحافظة على المجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات

حدود البحث:

أما حدود المشكلة فهي تحديد تلك المبادئ في سورة الحجرات، والاستفادة منها.

أسئلة البحث:

يجيب هذا البحث عن السؤال التالي:

- ما هي مبادئ المحافظة على المجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات ؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة التالية:

- ما اسم السورة، وأين نزلت، ومتى نزلت، وما عدد آياتها، وما محورها؟
- ما الطريقة المثلى للتعامل مع التشريع والمشرع ؟
- ما دور مبدإ التثبت في نقل الأخبار في المحافظة على المجتمع المسلم ؟
- ما هو المنهج الأمثل لمعالجة الخصومات والقتال بين المسلمين؟
- ما أثر النهي عن بعض السلوكيات التي تؤدي إلى الفرقة والاختلاف في المحافظة على المجتمع المسلم؟
- ما الأثر الإيجابي لتذكير الناس بأصل خلقهم في المحافظة على المجتمع المسلم؟
- ما هي النتائج والفوائد من هذه الدراسة ؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة التوجيهات، والأسس التي اشتملت عليها سورة الحجرات فيما يتعلق بحماية المجتمع وصيانته، ويمكن تلخيص أهدافه في الآتي:

١- جمع المبادئ المتعلقة بالمحافظة على المجتمع المسلم ودراستها دراسة موضوعية.

٢- بيان أثر هذه المبادئ في تماسك البناء الداخلي، والخارجي للمجتمع .

٣- استخلاص النتائج والفوائد من هذه الدراسة؛ للإفادة منها.

أهمية البحث:

تتلخص أهمية البحث في النقاط الآتية:

١- صلة البحث المباشرة بكتاب الله تعالى مصدر التشريع الأول .

٢- الحاجة الماسة إلى تفعيل مثل هذه المبادئ خاصة مع كثرة الفتن والاختلافات التي تمر بها الأمة الإسلامية.

٣- إبراز دور القرآن الكريم في بناء المجتمع ، وصيانته على أكمل وجه.

أسباب اختيار البحث:

وتتخلص في النقاط الآتية :

١- أهمية علم التفسير، وعظم شرفه؛ لأن خدمته خدمة لكتاب الله .

٢- أهمية هذه المبادئ التي اشتملت عليها سورة الحجرات خاصة فيما يتعلق بالواقع الذي تعيشه الأمة الإسلامية.

٣- انتشار التنافر والاختلاف بين أبناء الأمة الإسلامية.

منهج البحث:

أولاً: المنهج العلمي :

يقوم هذا البحث على المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي التحليلي بتتبع المبادئ التي تضمنتها سورة الحجرات، ودراستها دراسة موضوعية للوصول إلى النتائج والفوائد من هذه الدراسة.

ثانياً: المنهج العملي :

اشتمل البحث على مقدمة وتمهيد وستة مباحث وخاتمة تفاصيلها كما يلي :

المقدمة : واشتملت على أهمية الموضوع وأهدافه ومنهجه، والدراسات السابقة.

التمهيد : وفيه تحدث الباحث عن سورة الحجرات مبينا اسمها ومكان وزمان

نزولها وعدد آياتها ومحورها وشرح الباحث عنوان البحث.

المبحث الأول: **الطريقة المثلى للتعامل مع التشريع والمشرع.**

المبحث الثاني : **التثبت في نقل الأخبار.**

المبحث الثالث: **المنهج الأمثل لمعالجة الخصومات والقتال بين المسلمين.**

المبحث الرابع : **النهي عن بعض السلوكيات التي تؤدي إلى الفرقة والاختلاف.**

المبحث الخامس: **تذكير الناس بأصل خلقهم.**

حدود البحث:

الحدود الموضوعية: المبادئ والأسس التي تسهم في رتق المحافظة على المجتمع المسلم، والتي تضمنتها سورة الحجرات.

الدراسات السابقة:

١- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم للدكتور مصطفى مسلم والذي تناول سور القرآن الكريم ودرسها دراسة موضوعية وفق منهج التفسير الموضوعي.

٢- سورة الحجرات – دراسة تحليلية موضوعية للأستاذ الدكتور ناصر العمر والذي تناول دراسة الآيات وتفسيرها تفسيرا تحليليًا، ودراسة سورة الحجرات دراسة موضوعية.

٣- التربية الأخلاقية في ضوء سورة الحجرات للدكتور عبدالسلام اللوح وفيه تحدث عن محور السورة وهو التربية الأخلاقية بدراسة موضوعية لآياتها.

أما هذه الدراسة فهي تتناول المبادئ التي اشتملت عليها سورة الحجرات والتي تعنى بالمحافظة على المجتمع المسلم وصيانته من التفكك

والانحلال، فلم أقف – حسب ما توفر عندي من مصادر- على دراسة تناولت مبادئ المحافظة على المجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات.

تمهيد

تعريف بسورة الحجرات

اسم السورة:

تسمى سورة الحجرات، وهذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب السنة، وكتب التفسير، وليس لها اسم غيره[1]، وسبب تسميتها بهذا الاسم ورود ذكر الحجرات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

نزول السورة:

سورة الحجرات من السور المدنية بالإجماع[2]، نزلت بعد الهجرة النبوية، فهي من السور التي نزلت في العهد المدني.

وهي في ترتيب نزول السور السورة الثامنة بعد المائة، نزلت بعد سورة المجادلة، وقبل سورة التحريم، وكان نزول هذه السور سنة تسع للهجرة[3]، فهي من السور المدنية التي نزلت في أواخر العهد المدني.

عدد آياتها:

عدد آياتها ثماني عشرة آية عند علماء العدد لا اختلاف بينهم في هذا العدد[4].

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٢١٣)، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ١٢٧) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

(٣) التحرير والتنوير (٢٦ / ٢١٣)، محمد الطاهر بن عاشور.

(٤) البيان في عد آي القرآن (ص ٢٣٠)، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني، تحقيق : غانم قدوري الحمد، الطبعة : الأولى، مركز

محور السورة:

سبقت الإشارة إلى أن سورة الحجرات من السور المدنية التي نزلت في أواخر العهد المدني، والسمة البارزة في تلك السور اهتمامها بالتشريعات التي تقي المجتمع المسلم الأخطار التي تهدد تماسكه، ووحدته؛ لأنّ المجتمع الإسلامي في تلك المرحلة في حالة بناء، ويحتاج في نفس الوقت إلى تشريعات من شأنها المحافظة على ذلك البناء، فكان المحور الذي تدور حوله السورة هو: (التربية الأخلاقية للمجتمع الإسلامي)، وذلك من خلال الأسس الكريمة التي تضمنتها هذه السورة الكريمة.

شرح عنوان البحث:

رتق: الرتق من الفعل رتق، والرتق: ضد الفتق. وقد رتقت الفتق أرتقه، فارتتق، أي التأم[1]. والرتق يكون في الثياب إذا حصل فيها الفتق حتى تكون صالحة للاستعمال.

النسيج: من نسج، والنسج ضم الشيء إلى الشيء[2]، ومنه صناعة النسيج؛ لأنها عبارة عن ضم الخيوط بعضها إلى بعض حتى تنسج فيكون منها القماش.

وبناء على ما سبق فالمراد برتق النسيج الاجتماعي: ايجاد التشريعات التي تكفل وجود مجتمع متماسك مترابط قادر على المحافظة على هذا الارتباط، والتماسك، وصيانته من التفكك.

المخطوطات والتراث – الكويت – ١٤١٤ هـ– ١٩٩٤م.

(١) الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية(٥ / ١٦٦)، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، الطبعة: الرابعة– يناير ١٩٩٠، الناشر: دار العلم للملايين– بيروت.

(٢) لسان العرب (٢ / ٣٧٦)، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت.

وسورة الحجرات من السور التي اشتملت على جملة من التشريعات الربانية، التي ما تمسك بها مجتمع، وما عملت بها أمة من الأمم إلا كان ثمرة ذلك الوحدة بين أفرادها، والصمود في مواجهة الأخطار التي تهدد الأمم والمجتمعات، والواقع خير شاهد على ذلك.

المبحث الأول

الطريقة المثلى للتعامل مع التشريع والمشرع

المطلب الأول

التعامل مع التشريع

افتتحت السورة الكريمة بنداء المؤمنين، وتنبيههم إلى الطريقة المثلى التي ينبغي أن يكون بها التعامل مع التشريع، وما هي الطريقة التي يتلقى بها المسلم تشريع ربه سبحانه وتعالى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١].

يقول المفسرون عن هذه الآية: إنها من الآيات التي أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول -صلى الله عليه وسلم- من التوقير، والاحترام، والتبجيل، والإعظام[(١)]، حيث كانت عادة العرب الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء ويقطع من الآراء ما يريد[(٢)].

ولذا أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين ألا يعجلوا بقضاء أمر من الأمور سواءً كان قولاً، أو فعلا قبل أن يقضي الله فيه، ورسوله؛ لأنهم ربما قضوا بخلاف ما أمر الله، وما أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكل ذلك فيما

(١) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٢٤٨)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت.

(٢) المحرر الوجيز (٥ / ١٢٧) ابن عطية.

سبيله أن يأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا[1].

وفي هذه الآيات وضع الله سبحانه وتعالى فيها منهجاً مهماً في التلقي والتنفيذ، بمعنى أنه يجب تلقي ما يصدر من توجيهات، وتعليمات من النبي -صلى الله عليه وسلم- وتنفيذها على النحو المطلوب، دون التعديل فيها، أو التغيير، أو حتى الاقتراح؛ لأنها صادرة من الله سبحانه وتعالى- إلا فيما فيه السبيل إلى الاجتهاد.

فالآيات تشير إلى مبدإ مهم يضمن مجتمعاً متماسكاً، متكاتفاً، بعيداً عن الفرقة والشتات، محصناً من كل أسبابها، وهو طريقة التعامل مع التشريعات والقوانين التي تنظم حياة الناس، وذلك بالنظر إلى هذه التشريعات على اعتبار أنها تشريعات قدسية لا مجال للاعتراض عليها، أو قطع رأي دونها.

صحيح أن تلك القدسية لا تكون إلا للتشريعات الصادرة عن الله -سبحانه وتعالى- والصادرة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مما لا مجال لإعمال الرأي فيه، لكن القائد في الدولة الإسلامية هو خليفة الله في تنفيذ أوامره، فلا شك أنه لابد أن يحظى بنوع من الاحترام والتبجيل، وتحظى كذلك القوانين التي يستصدرها بنوع من الاهتمام في التلقي وطريقة التنفيذ، وهذه التشريعات وإن كان بعضها باجتهاد-وذلك فيما لا نص فيه- وقد تكون قابلة للأخذ والرد إلا أنّ العلماء قد نزلوها منزلة التشريعات الملزمة للأمة، ولذلك قالوا: (إنّ حكم الحاكم يقطع الخلاف، ويسقط الاعتراض، بخلاف قول المفتي فإن فتواه غير لازمة ولا مانعة من الاجتهاد)[2].

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (٢٢ / ٢٧٢)، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، الناشر: مؤسسة الرسالة، الجامع لأحكام القرآن (١٦ / ٣٠٠) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام (٣١٣/١)، علي بن محمد الآمدي، تحقيق : د. سيد الجميلي، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ه، دار الكتاب

ولا شك أنّ تشريعات الحاكم المسلم إما أن تكون من الكتاب والسنة، وقد بينت الآيات كيفية التعامل مع تلك التشريعات، وإما أن تكون باجتهاد، وما كان منها باجتهاد فإن حُكم الحاكم به يرفع الخلاف ويصبح ملزماً وقد تقدم حكم العلماء فيه، وهذا المنهج فيه أدب يبين عظمة تلك التشريعات التي يتلقاها المؤمن، وعظمة من تصدر عن هذه التشريعات، وذلك يربي في النفس الإنسانية حسن الانقياد، والطاعة للأوامر والتشريعات التي يكلف بها الإنسان، ويعطيها قدسية ومكانة عظيمة في النفس، وهذا بدوره كفيل بأن تتلقى النفس التشريعات بالقبول والرضا التام، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجا مِّمَّا قَضَيتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسلِيما ﴾ [النساء: ٦٥]، إضافة إلى أنّ هذا المنهج يؤدي إلى توحيد مصدر التشريع، بحيث يكون مصدر التشريع الكتاب والسنة، واجتهاد المجتهدين من علماء الأمة الذين هم أهل للاجتهاد، فيغلق ذلك الباب أمام الآراء والاجتهادات التي لا حصر لها لو فتح الباب للجميع، بل ربما أدت إلى الفرقة والاختلاف بين مكونات المجتمع.

وإذا توحد مصدر التشريع، وتقبلت النفوس القوانين والتشريعات بنفس راضية باعتبار أنّها حكم الله أمكن تطبيق القوانين بكل يسر وسهولة على القوي، والضعيف على حد سواء، وبهذا يمكن لكل ذي حق أن يأخذ حقه، وبذلك تتحقق العدالة التي تولد مجتمعا معافى من كل أسباب الفرقة، والشتات.

العربي – بيروت.

المطلب الثاني

التعامل مع المشرّع

لم تكتف الآيات بتعليم الأدب في استصدار التشريعات، التي على أساسها يبنى الفرد، والجماعة، بل ضمت إلى ذلك الأدب مع المشرع في شخصه، واحترامه لدرجة خفض الصوت عنده وعدم رفعه، وهذا مبالغة في حسن الأدب الذي يربي في النفس الالتفاف حول القائد ونصرته.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَاتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢].

نبه الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يتأدبوا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فنهى عن رفع الصوت عنده، ونهى عن الجهر له بالقول، وبين رفع الصوت والجهر به فرق يبينه سبب نزول الآيات، فعن ابن أبي ملكية أن عبد الله بن الزبير أخبرهم: أنه قدم ركب من بني تميم على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال أبوبكر أمّر القعقاع بن معبد بن زرارة، قال عمر: بل أمّر الأقرع بن حابس، قال أبوبكر: ما أردت إلا خلافي، قال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الحجرات: ١]، حتى انقضت[(١)].

وقال محمد بن إسحاق وغيره: نزلت في جفاة بني تميم، قدم وفد منهم على النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فدخلوا المسجد، فنادوا النبيّ - صلى الله عليه وسلم - من وراء حجرته: أن اخرج إلينا يا محمد، فإنّ مدحنا زين وإنّ ذمنا شين، فآذى ذلك من صياحهم النبيّ - صلى الله عليه وسلم

(١) الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه (٤ / ١٥٨٧)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت.

- فخرج إليهم، فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرك، ونزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾، وكان فيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم[1].

فالنهي عن رفع الصوت في حال حصل الكلام عنده وهو في المجلس، والنهي عن الجهر يتعلق بمخاطبته - صلى الله عليه وسلم - أي إذا تحدث معه[2].

صحيح أن الاحترام والتبجيل بتلك الكيفية يكون للنبي - صلى الله عليه وسلم- لكنّ الآيات كما أمرت بلزوم الأدب مع الله، ورسوله، فكذلك لابد أن يكون لقادة الأمة نصيب من هذا الأدب، سواء في تنفيذ قوانينهم، أو في شخصهم، ولا يعني ذلك تنزيلهم منزلة النبي - صلى الله عليه وسلم - في الأدب مع أشخاصهم، بل يكون الأدب بما يتناسب، وقد جاءت النصوص مؤكدة على هذا الأدب والاحترام، فعن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه- قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط))[3].

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم: ((السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه أكرمه الله ومن أهانه أهانه الله))[4].

(١) أسباب النزول (ص ٢٥٩)، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز مكه المكرمة ١٣٨٨ ه – ١٩٦٨ م، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور، (٢٢١/٢٦).

(٣) سنن أبي داود – (٢ / ٦٧٧)، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر.

(٤) شعب الإيمان (٦ / ١٧)، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى ١٤١٠ه، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. صححه الألباني في ظلال الجنة: ١٠٢٤، (هب) ٧٣٧٣.

وعَنْ أَبِي بَكَرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله – صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ: ((مَنْ أَكْرَمَ سُلْطَانَ الله فِي الدُّنْيَا، أَكْرَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ الله فِي الدُّنْيَا أَهَانَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[1].

قال حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه –: (لا يمشين رجل منكم شبراً إلى ذي سلطان ليذله ، فلا والله لا يزال قوم أذلوا السلطان أذلاء إلى يوم القيامة)[2].

وقال سهل بن عبد الله – رحمه الله –: (لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء، فإن عظموا هذين أصلح الله دنياهم وأخراهم، وإن استخفوا بهذين أفسدوا دنياهم وأخراهم)[3].

قال ابن حزم: (اتفقوا على إيجاب توقير أهل القرآن، والإسلام، والنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك الخليفة والفاضل، والعالم)[4].

والتعامل مع القادة بذلك الاحترام والتوقير والتبجيل، من شأنه أن يحفظ المجتمع من الفرقة، والشتات، ويجعله محصناً من كل أسبابها؛ وذلك للدور الكبير الذي يشغله السلطان في المجتمع أياً كان ذلك المجتمع ، إذ لا يستقيم حال الناس بلا حاكم يقودهم تجتمع كلمتهم عليه كما قال الشاعر[5]:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم •• ولا سراة إذا جهالهم سادوا[6]

(١) مسند الإمام أحمد (٣٤ / ٧٩)، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م، الناشر: مؤسسة الرسالة.

(٢) مصنف عبد الرزاق (٨ / ٦٤٥)، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ه، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٦٠)، القرطبي.

(٤) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٤٦٨)، الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط / عمر القيام، الناشر مؤسسة الرسالة ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م – بيروت.

(٥) هو صلاءة بن عمرو بن مالك، من بني أود، من مذحج: شاعر يماني جاهلي، يكنى أبا ربيعة. ويلقب بالأفوه، قيل: لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الاسنان. كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم، وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره.
الأعلام للزركلي (٣ / ٢٠٦)، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الطبعة الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م، دار العلم للملايين.

(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب (٣ / ٥٧)، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة :

وقد اتفق أئمة الدين على أنّ نصب الإمام واجب على المسلمين[1]، لأنّ عادة الناس أن لا ينقاد بعضهم لبعض إلا أن يكون لهم سلطان، فإذا تخلف السلطان أدى ذلك إلى أنّ كل واحد يريد أن يحمي نفسه بنفسه، وهنا يحلوا لأصحاب الأطماع محاولة تحقيق أطماعهم ما ينتج عنه فوضى لا يبطل فيها باطل، ولا يقر فيها حق، فالحكم للأقوى؛ لذلك وجب أن يكون الناس تحت سلطان ذو رأي قاهر، وأن يكون لهذا السلطان السمع، والطاعة، والاحترام، والتوقير حتى يمكنه بسط السلطان في الأرض، ولو لم يحظ الحاكم بالاحترام والتوقير؛ لأدى ذلك إلى ضعف هيبته في النفوس، وسقوط شخصيته، وهذا من شأنه أن يضعف دولته، ويقوض حكمه وتعم الفوضى في أرجاء البلاد.

المبحث الثاني

التثبت في نقل الأخبار

وهذا من المبادئ المهمة التي وضع لها الله سبحانه وتعالى منهجاً حكيماً في هذه السورة، يتمثل في التثبت عند ورود الخبر قبل اتخاذ أي قرار بشأنه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُم فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

نزلت هذه الآيات في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، بعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بني المصطلق مصدقاً[2]، وكان بينه وبينهم عداوة

الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م.

(١) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٧ / ١٢٧)، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري/ محمد الناصري، الناشر: دار الكتاب، سنة النشر: ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، الدار البيضاء.

(٢) المصدق هو عامل الزّكاة الذي يستوفيها مِنْ أرْبابها.

في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيماً لله تعالى ولرسوله، فحدثه الشيطان أنّهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه، فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقالوا: سمعنا برسولك، فخرجنا نتلقاه، ونكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من حق الله تعالى، فبدا له في الرجوع، فخشينا أن يكون إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك بغضب غضبته علينا، وإنّا نعوذ بالله من غضبه، وغضب رسوله، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُم فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، يعني الوليد بن عقبة[1].

قال ابن عاشور[2]: (وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظن ذلك كما في «الإصابة» عن ابن عبد البر[3]، وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمد الكذب، قال الفخر[4]: «إن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد شيء بعيد لأنه

انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٨)، ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(١) أسباب النزول، (١ / ٢٦١)، الواحدي.

(٢) هو "محمد الطاهر" بن محمد بن "محمد الطاهر بن عاشور"، الشهير بالطاهر بن عاشور، وُلد بضاحية المرسى بالعاصمة التونسيّة، سارت مسيرته العمليّة في مسارين: مسار العمل التّعليمي والتربويّ، الّذي انطلق بعد تخرجه في الزيتونة مباشرة، ومسار العمل في سلك القضاء، الّذي بدأ عام ١٩٠٩م، من أشهر مؤلفاته كتاب التحرير والتنوير في التفسير.
انظر: شيخ الجامع الأعظم: محمد الطاهر ابن عاشور: حياته وآثاره، د. بلقاسم الغالي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، دار ابن حزم.

(٣) هو: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي؛ إمام عصره في الحديث والأثر وما يتعلق بهما، له كتاب " الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار " شرح فيه الموطأ على وجهه ونسق أبوابه، وجمع في أسماء الصحابة رضي الله عنهم كتاباً سماه " الاستيعاب " وله كتاب " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله وغيرها.
انظر: وفيات الأعيان (٧/ ٦٦)، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة: الأولى ١٩٩٤، دار صادر - بيروت.

(٤) هو مُحَمَّد بن عمر بن الْحُسَيْن بن الْحسن بن عَليّ الْعَلامَة فَخر الدّين أَبُو عبد الله الْقرشِي الْبكْرِيّ التَّيْمِيّ الطبرستاني الأَصْل الرَّازِيّ ابْن خطيب الرّيّ الشَّافِعِي الْمُفَسّر الْمُتَكَلّم صَاحب التصانيف، ولد في سنة أَرْبع وَأَرْبَعين وَخَمْسمائة، صنف التَّفْسِير الْكَبِير في اثْنَي عشر مجلدا سَمَّاهُ فتوح الْغَيْب أَو مَفَاتِيح الْغَيْب وَقد كَانَت وَفَاته فِي يَوْم الْفطر بهراة فِي سنة ستّ وستمائَة هجرية.
انظر: طبقات المفسرين للأدنوي (ص: ٢١٣)، أحمد بن محمد الأدنوي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، مكتبة العلوم والحكم - السعودية.

توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقا» . قلت: ولو كان الوليد فاسقاً لما ترك النبي صلى الله عليه وسلم تعنيفه واستتابته فإنّه روي أنه لم يزد على قوله له «التبين من الله والعجلة من الشيطان»)[1].

فالآية نبهت على التثبت من خبر الفاسق لمناسبة هذه القصة، لا لوصف إنسان معين بالفسق، وقد جاءت كلمة ﴿فاسق﴾ منكّرة، ومن المعلوم أنّ النّكرة في سياق الشرط تفيد العموم، فهي عامة في كل من اتصف بهذا الوصف؛ لأنّه غير مأمون على ما نقل من الأخبار، ويدخل في الأمر بالتثبت خبر مجهول الحال؛ لأنه قد يكون فاسقاً.

وهذا منهج حكيم يقتضي عدم رد خبر الفاسق بالكلية وعدم قبوله من أول مرة قبل التثبت فلا يرد الخبر بالكلية، ولا يقبل دون تثبت؛ لأنّ الخبر وإن كان راويه فاسق، فقد يكون صحيحا، فلذلك جاء مبدأ التثبت.

إنّ من أهم ما يسهم في المحافظة على المجتمع الحذر من تصديق الشائعات ا ونشرها ، وتناقل الأخبار قبل التثبت في أمرها، فكم من معلومات نقلت كانت سبباً للإضرار بأناس آخرين لا ذنب لهم، أو أدت إلى فرقة بين أخوين، أو قتال، وذلك ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَومَا بِجَهَالَة فَتُصبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلتُم نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

عبر القرآن عن عدم التثبت في نقل الخبر بالجهالة أي: جاهلين بحقيقة الأمر، فكل ما ينتج عن قبول الخبر من أضرار سببه الجهالة الناتجة من عدم الثتبث، وبهذه التوجيهات الكريمة يعالج القرآن الكريم الإفرازات الناتجة

(١) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٩)، ابن عاشور.

عن الأخبار الكاذبة، والإشاعات المضللة قبل حدوثها بحكمة، وموضوعية، تضمن للمجتمع الإسلامي ألا تؤثر تلك الأخبار في ترابط نسيجه الاجتماعي لو اتبع هذا المنهج القرآني الحكيم.

المبحث الثالث

المنهج الأمثل لمعالجة الخصومات والقتال بين المسلمين

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النهي عن قبول خبر الفاسق دون تثبت؛ لما ينتج عنه من آثار سيئة قد تؤدي إلى حصول الخصومات، والاقتتال، جاء التنبيه في هذه الآيات إلى بيان الطرق التي يمكن بها العلاج الأمثل لو حصل قتال بين المسلمين بسبب خبر غير صحيح، أو بسبب سوء فهم، أو غيرها من الأسباب، (وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، تحت النزوات والاندفاعات، تأتي تعقيبا على تبين خبر الفاسق، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة، قبل التثبت والاستيقان)[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

تبين هذه الآيات المنهج الذي ينبغي أن يتبع فيما لو حصل قتال بين المسلمين وإن كان الإسلام لا يريد حصول الاقتتال بين معتنقيه، بل إنه يجعل

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٤٣)، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ ه، دار الشروق – بيروت– القاهرة.

حرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة المشرفة، ولكن قوع القتال أمر ممكن وبخاصة أن النفوس قد جبلت على الاختلاف الذي هو مظنة التنازع.

وقد أورد القرآن حصول الاقتتال بين المسلمين في سياق يجعل وقوعه أمرا نادراً، أو قليل الوقوع؛ ولذا عبر بقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩]، في إشارة إلى أنّ حدوث اقتتال بين المسلمين نادر الوقوع[1]؛ لأن المسلم بحسب تعاليم دينه وبإحساس الأخوة الدينية الذي يربيها عليه دين الإسلام لا تسمح له نفسه بقتال أخيه المسلم.

والآيات لها سبب نزول هو ما رواه أنس – رضيَ الله عنه– قالَ: قيلَ للنبى – صلى الله عليه وسلم –: لو أتيتَ عبدَ اللهِ بنَ أبَى، فانطلَقَ إليه النبي – صلى الله عليه وسلم –، ورَكِبَ حِماراً، فانطلَقَ المسلمونَ يَمشونَ معهُ، وهي أرض سَبِخَة[2]، فلما أتاهُ النبي – صلى الله عليه وسلم –، فقالَ: إليكَ عني، واللهِ لقد آذاني نَتْنُ حمارِكَ!

فقالَ رجل مِن الأنصارِ منهُم: واللهِ لحِمارُ رسولِ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – أطيَبُ ريحاً منكَ، فغَضِبَ لعبدِ اللهِ رجل مِن قومِه، فتشَاتما، فغَضِبَ لكل واحد منهما أصحابُهُ، فكانَ بينَهما ضَرْب بالجريد، والنَعال، والأيْدِي، فبَلَغَنا أنَها أنْزَلَتْ: ﴿وإنْ طائِفَتانِ مِن المؤمِنينَ اقْتَتَلوا فأصْلِحوا بينَهُمَا﴾[3].

فلو حصل قتال بين المسلمين، أو بدت بوادره، فعلى المسلمين أن

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ١٠٤) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ) – الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) الأرض السبخة هي الأَرْض المالحة الَّتِي لَا تنْبت شَيْئا.
انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/ ٢٥)، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٣) الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه (٣/ ١٨٣) باب ما جاء في الإصلاح بين الناس، محمد بن إسماعيل البخاري.

يسعوا ويبادروا إلى الصلح بين المتقاتلين، والخطاب هنا موجه لكل المسلمين فهو أمر واجب على جميعهم بلا استثناء، وذلك يتطلب منهم التكاتف، وبذل كل ما يستطيعون من أجل الوصول إلى الصلح بين الطائفتين المتقاتلتين، فيذكرونهم بالله عز وجل، ويذكرونهم برابطة الأخوة الإسلامية التي تربط بين المسلمين، وهي من أقوى الروابط القائمة على أساس الدين إذ تقتضي أن يعامل المسلم المسلم على أساس أنه أخ له حقوق وواجبات يجب الوفاء بها، والقيام بها على أكمل الوجوه، ولذلك نبهت الآيات إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي على المتقاتلين أن يراعوا هذه الأخوة، فيتنازل كل واحد لأخيه حتى تقوم هذه الأخوة على أحسن أحوالها، وأنه ينبغي ويجب على كافة أفراد المجتمع الإسلامي المبادرة بالمعالجة، والصلح مراعاة لهذه الأخوة حتى تستمر كما أراد الله سبحانه وتعالى، وهذا يعني أن رابطة الأخوة تقتضي التعاون، والتحاب، والتناصح لا التباغض، والتنافر، كما أنها تستدعي التدخل لفض ما قد يحصل من خصومات بينهم، فهم إخوة، والاقتتال بين الإخوة مفسدة عظيمة.

قال سيد قطب: (ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة هي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف أو القتال هو الاستثناء الذي يجب أن يرد إلى الأصل فور وقوعه وأن يستباح في سبيل تقريره قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم إلى الصف، وليزيلوا هذا الخروج على الأصل والقاعدة)[1].

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٣٤٣)، سيد قطب.

والصلح قد يتطلب دفع أموال طائلة لإحدى الطائفتين أو كليهما، وجمع المبالغ يحتاج إلى تعاون من كافة أفراد المجتمع الإسلامي حتى يصل المجتمع إلى صيانة الأخوة من الفرقة والشتات الذي يؤدي إلى ضعف المسلمين.

فإن حصل التعدي بعد ذلك من إحدى الطائفتين على الأخرى، ولم تقبل الصلح، وأجابت الأخرى، وجب على المسلمين أن يقاتلوا الطائفة الباغية؛ لأنها خرجت عن اجماع المسلمين، وخرجت عن الصواب، فتقاتل تلك الطائفة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وحكمه، فإن رجعت عن بغيها، وأجابت الدعوة إلى كتاب الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، فيجب الأخذ على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى.

جاء في الصحيح عن أنس -رضي الله عنه- أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ: «تَحْجُزُهُ، أَوْ تَمْنَعُهُ، مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ))[1]، ثم جاء الأمر للمسلمين بتحري العدل في جميع أمورهم؛ لأن عدم العدل مظنة لوقوع الشقاق، فإذا كان العدل سبب لنزع الشحناء والبغضاء، فإن الظلم سبب لحصولهما فلذا جاء الأمر بعد ذلك بلزوم العدل في كل الأمور.

هذه التوجيهات الحكيمة تتطلب من المسلمين أن يكونوا أمة واحدة مترابطة، ولهم قوة رادعة تمنع أي عنصر منهم يستهويه الشيطان على

(١) الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله وسننه وأيامه (٩/ ٢٢) باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما، محمد بن إسماعيل البخاري.

عنصر آخر بغير وجه حق، وبذلك يمكن أن يسلم المجتمع المسلم من التفكك والانقسام.

المبحث الرابع

النهي عن بعض السلوكيات التي تؤدي إلى الفرقة والاختلاف

وقد جاء ذلك في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

بعد أن بينت الآيات الطريقة المناسبة لاحتواء أيّ خلاف أو قتال قد ينشأ بين المسلمين، جاء تعزيز ذلك بالنهي عما يؤدي إلى الفرقة والاختلاف، فكان النهي عن السخرية، واللمز، والنبز، وسوء الظن، والتجسس.

فالسخرية تؤدي إلى احتقار الآخرين وازدرائهم؛ لأن الساخر ما دفعه إلى السخرية إلا أنّه يرى أنه خير من المسخور منه، وذلك من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء في النفوس لكل من الساخر والمسخور منه، فنهى الله سبحانه المؤمنين عن ذلك حتى يلتئم شمل المجتمع، ونبههم إلى أن الخيرية قد تكون في الشخص المسخور منه؛ لأنّه لا يعلم بواطن الأمور إلا الله سبحانه وتعالى، فربما سخر الإنسان ممن هو خير منه في الدين أو في الدنيا جاهلاً منزلته غير مدرك مكانته فلمزه بقبيح القول أو الفعل.

واللمز وهو العَيْب في الوجه أصله الإشارة بالعين ونَحوها، كالرأس والشفَة مَعَ كلام خَفِيٍّ[1]، وَالنبز التداعي بالألقاب أَي لَا تَتَدَاعَوْا بِالْأَلْقَابِ،

(١) تاج العروس للزبيدي (١٥/ ٣٢١)، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

وَهِيَ الَّتِي يَسُوءُ الشَّخْصَ سَمَاعُهَا[1]، وَقال ابْنُ عَبَّاس: التَّنَابُزُ بِالْأَلْقَاب أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ قَدْ عَمِلَ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابَ، فَنَهَى اللهُ أَنْ يُعَيِّرَ بِمَا سَلَفَ[2]، وكلاهما يؤدي إلى الشحناء والبغضاء وخاصة إذا حصل الرد من الجانب الآخر، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، تنبيه على أنهم كالنفس الواحدة، فلا ينبغي ولا يصلح أن تكون بينهم مثل هذه الأعمال التي لا تزيدهم إلا اختلافاً وتفككاً، ولذا سماه الله سبحانه وتعالى فسوقاً، ولا يحسن بالمسلم أن ينادى باسم الفسوق بعد أن كان ينادى باسم الإيمان وشتان ما بين الاسمين.

ثم أمرهم الله سبحانه وتعالى باجتناب كثير من الظن، وفي هذا إشارة إلى النهي عن بعض الظنون وهو ما عبر الله عنه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وهو الظن السيء كما بين المفسرون[3]، أما الظن الحسن فهو مطلب شرعي يزيد الأخوة ترابطاً والتئاماً؛ ولذا قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، وذلك لأنّ الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد والاغتيالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذراً من اعتداء مظنون ظناً باطلاً، كما قالوا: خذ اللص قبل أن يأخذ[4]، والظن المنهي عنه هو الظن من غير سبب أو شبهة توجبه[5]، أما إذا كانت هناك شبهة أو سبب قوي يدعو إلى الظن السيء، فإن ذلك مجال سوء الظن، ولذا جاء

(١) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣٥٢)، ابن كثير.
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢٩)، القرطبي.
(٣) جامع البيان (٢٢/ ٣٠٣) ، الطبري.
(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٥١)، ابن عاشور.
(٥) الجامع لأحكام القرآن القرطبي. (١٦/ ٣٣١)، ابن عاشور.

عن عمر رضي الله عنه - قوله: (من أقام نفسه مقام التهمة فلا يلومن من أساء به الظن)[1]، والأولى بالمسلم أن يحسن الظن بإخوانه المسلمين، ويحملهم على أحسن المحامل، فذلك مدعاة إلى أن تصفو النفوس فتحصل الأخوة ويقوى الترابط.

وبما أن الظن يورث في النفس الشكوك، والنفس تتوق إلى إزالة تلك الشكوك باليقين، وذلك يقودها إلى التجسس على الآخرين، جاء النهي عن التجسس سداً لهذا الباب الذي سببه الظن السيء، والتجسس من الأمور الخطيرة التي تفتك بالروابط الأخوية؛ لأنّ المتجسس ربما وقع بسبب تجسسه على عيب كان مستوراً ، وربما علم المتجسس عليه بحال المتجسس فيقع في النفس من الفساد ما يصعب إصلاحه؛ ولذا كانت الحكمة في النهي عن التجسس؛ لما فيه من المفاسد العظيمة.

المبحث الخامس

تذكير الناس بأصل خلقهم

احتقار الناس، وازدراؤهم، والتفاخر بالأنساب من أعظم الأسباب التي تؤدي إلى الشحناء والبغضاء، وتؤدي إلى الفرقة والاختلاف، فكان العلاج الناجع لمثل هذه التصرفات تذكير الناس بأصلهم، فالكل من أصل واحد، من آدم وحواء، وإذا كان الأمر كذلك فلا مجال للتفاضل، ولا مجال للتفاخر، وإنما التفاضل يكون في جانب واحد هو جانب الأخلاق والتقوى، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

(١) مكارم الأخلاق للخرائطي (ص: ١٦١) أبو بكر محمد بن جَعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تقديم وتحقيق: أ يمن عبد الجابر البحيري، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، دار الآفاق العربية، القاهرة.

أما تقسيم الناس إلى قبائل وشعوب، فإنّما هو لأجل أن يعرف بعضهم بعضا في قرب القرابة منه أو بعدها (فكان هذا التقسيم الذي ألهمهم الله إياه نظاماً محكماً لربط أواصرهم دون مشقة ولا تعذر، فإنّ تسهيل حصول العمل بين عدد واسع الانتشار يكون بتجزئة تحصيله بين العدد القليل، ثم ببث عمله بين طوائف من ذلك العدد القليل، ثم بينه وبين جماعات أكثر، وهكذا حتى يعم أمة أو يعم الناس كلهم، وما انتشرت الحضارات المماثلة بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم)[1]، فهذا هو الغرض من التقسيم ليس التفاخر والتعالي، ويؤكد ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم منسأة في الأثر مثراة للمال))[2]، فلم يبق سبب لأن تكون الأنساب وسيلة للتعالي على الناس واحتقارهم فمعيار التفاضل والتكريم عند الله -سبحانه وتعالى- هو التقوى، وهذا الأمر الذي يكون به التفاضل لم يجعل الله أمره للبشر؛ لأنّه مما تكنه الصدور، والبشر محجوبون عن علم ذلك فلا مطمع إذن لمعرفة الأكرم، ومن أراد الرفعة والكرامة، فهذا ميدانها فليتسابق في تحصيلها.

وبهذا التقرير يضع القرآن المبدأ الذي لم يكن العالم قد تنبه له بعد، وهو أن الناس متساوون في الخلق، لا فرق بين رجل وامرأة في هذه النسبة، وفي هذه الأصالة، ولا فرق بين مشرق ومغرب، ولا بين أبيض وأسود وأحمر، ولا يمكن أن يسعد مجتمع تمزق نسيجه العنصرية الجنسية، أو القبلية،

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (٢٦/ ٢٦٠).

(٢) سنن الترمذي ت شاكر (٤/ ٣٥١) ، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

أو الطائفية، أو اعتبار اللون[1].

وعلى هذا الأساس قام المجتمع الإسلامي، لا تربطه إلا رابطة الأخوة الإسلامية التي هي أعلى الروابط في مجتمع الإسلام، فهو من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه تجد فيه الأبيض، والأحمر، والأسود، والعربي، والعجمي، لا تفاضل بينهم، ولا رفعة لأحد على أحد إلا بمقدار تمسكه بهذا الدين، فأصبحوا سادة العالم بهذا المفهوم العميق، والتاريخ خير شاهد على ذلك.

الخاتمـــــــه

النتائج:

١- وجود مجتمع متآخ مترابط يضمن وجود أمة قوية ذات شوكة ومنعة، هو من أسمى المطالب التي تحتاج إلى كثير من التضحيات والترفع عن الدنايا والخساسات.

٢- رسم القرآن الكريم أمثل منهج في كيفية التعامل مع القادة والحكام، وتوجيهاتهم بما يكفل تنظيم الدول والمجتمعات دون احتقار للشعوب أو إذلالها.

٣- المنهج الحكيم يقتضي عدم رد خبر الفاسق بالكلية، وعدم قبوله من أول مرة قبل التثبت، فلا يرد الخبر بالكلية ولا يقبل دون تثبت.

٤- التفاخر بالأحساب والتباهي بالأنساب هي من العادات الجاهلية المتجذرة في نفوس الناس، والله سبحانه وتعالى قد وضع في كتابه القرآن الكريم

(١) المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء (ص٢٤)، محمد محمد المدني، طبعة الدار المصرية للنشر والتوزيع، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

أفضل علاج لهذه الظواهر الاجتماعية التي قل أن يخلوا منها مجتمع، وهو علاج لم يسبق أحد إليه، ولا يوجد علاج جذري أفضل منه.

٥- سورة الحجرات من السور التي اشتملت على أسس، ومباديء مهمة يحتاجها كل مجتمع لكي يستقيم أمره وتقوى شوكته ويحافظ على كيانه.

التوصيات:

١- توظيف الدراسات القرآنية لمعالجة المشكلات الاجتماعية، والاستفادة من منهج القرآن الكريم في ذلك.

٢- التخطيط المسبق ووضع المعالجات المبكرة، لأنه من انجح الوسائل في بناء مجتمع قوي متماسك.

٣- إبراز التوجيهات القرآنية التي تعالج كثيراً من القضايا الاجتماعية، والسياسية، وغيرها، حتى يظهر للعالم عظمة القرآن الكريم، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الآمدي، تحقيق : د. سيد الجميلي، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ه، دار الكتاب العربي – بيروت.

٣. الآداب الشرعية والمنح المرعية، الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق شعيب الأرنؤوط / عمر القيام، الناشر مؤسسة

الرسالة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م - بيروت.

٤. أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع عباس أحمد الباز مكه المكرمة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ م، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع

٥. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري / محمد الناصري، الناشر: دار الكتاب، سنة النشر: ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، الدار البيضاء.

٦. الأعلام للزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، الطبعة الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م، دار العلم للملايين.

٧. البيان في عد آي القرآن، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني، تحقيق : غانم قدوري الحمد، الطبعة : الأولى، مركز المخطوطات والتراث - الكويت - ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م

٨. تاج العروس للزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

٩. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ.

١٠. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، الطبعة:

الأولى - ١٤١٩ هـ، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت.

١١. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م، الناشر: مؤسسة الرسالة.

١٢. الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير ، اليمامة - بيروت.

١٣. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة.

١٤. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر

١٥. سنن الترمذي ت شاكر ، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر.

١٦. شعب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، الناشر: دار الكتب العلمية -

بيروت.
١٧. شيخ الجامع الأعظم: محمد الطاهر ابن عاشور: حياته وآثاره، د. بلقاسم الغالي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، دار ابن حزم.
١٨. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، الطبعة: الرابعة- يناير ١٩٩٠، الناشر: دار العلم للملايين- بيروت.
١٩. طبقات المفسرين للأدنه وي ، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م، مكتبة العلوم والحكم - السعودية.
٢٠. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
٢١. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ ه، دار الشروق - بيروت- القاهرة.
٢٢. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت.
٢٣. المجتمع المثالي كما تنظمه سورة النساء، محمد محمد المدني، طبعة الدار المصرية للنشر والتوزيع، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
٢٤. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة

الأولى، دار الكتب العلمية - لبنان - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٥. مسند الإمام أحمد، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٢٦. مصنف عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ه، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت.

٢٧. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢٨. مكارم الأخلاق للخرائطي، أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، دار الآفاق العربية، القاهرة.

٢٩. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، الطبعة : الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٣٠. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري،

تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٣١. وفيات الأعيان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة: الأولى ١٩٩٤، دار صادر - بيروت.